على هامش النهر :

التناسق الفنى
في تصوير القرآن
للأستاذ سيد قطب

قلنا : إن القرآن يرسم صوراً ويعرض مشاهد[1] ، فينبغى أن نقول : إن هذه المشاهد وتلك الصور ، يتوافر لها أدق مظاهر التناسق الفنى فى ماء الصورة ، وجو المشهد ، وتقسيم الأجزاء ، وتوزيعها فى الرقعة المعروضة .

والذى نعنيه هو :

أولا : ما يسمى « بوحدة الرسم » . وحتى المبتدئون فى القواعد يعرفون شيئاً عن هذه الوحدة ، فلسنا فى حاجة إلى شرحها . ويكفى أن نقول إن القواعد الأولية للرسم تحتم أن تكون هناك وحدة بين أجزاء الصورة ، فلا تتنافر جزئياتها .

وثانياً : توزيع أجزاء الصورة — بعد تناسبها — على الرقعة بنسب معينة حتى لا يزحم بعضها بعضا ، ولا تفقد تناسقها فى مجموعها .

وثالثاً : اللون الذى ترسم به ، والتدرج فى الظلال ، بما يحقق الجو العام المتسق مع الفكرة والموضوع .

والتصوير بالألوان يلاحظ هذا الانسجام ، ويقع شيء منه فى بعض المشاهد المسرحية والسينمائية المبدعة . والتصوير فى القرآن يلاحظ هذا كله ، وإن كانت وسيلته الوحيدة هى الألفاظ . وبذلك يسمو الإعجاز فيه على تلك المحاولات .

١ — خذ سورة من السور الصغيرة التى ربما يحسب البعض أنها شبيهة بسجع الكهان أو حكمة السجاع . خذ سورة « الفلق » .

فما الجو المراد إطلاقه هنا ، إنه جو التعويذة ، بما فيه من خفاء وهينمة وغموض وإبهام ، فاسمع :

« قُلْ : أعوذُ بربِّ الفَلَقْ . من شرِّ ما خَلَق . ومن شرِّ غاسقٍ إذا وَقَب . ومن شر النفّاثات فى العُقَد . ومن شر حاسد إذا حسد » .

فما الفلق الذى يستعيذ بربه ؟ نختار من معانيه الكثيرة معنى الفجر ؛ لأنه أنسب فى الاستعاذة به من ظلام ما سيأتى : مما خلق ومن الغاسق ، ومن النفاثات ، ومن الحاسد ، ولأن فيه إبهاما خاصاً سنعلم حكمته بعد قليل .

يعوذ برب الفجر « من شر ما خلق » هكذا بالتنكير وبما الموصولة الشاملة . وفى هذا التنكير والشمول يتحقق الغموض والظلام المنوى فى العموم . « ومن شر غاسق إذا وقب » الليل حين يدخل ظلامه إلى كل شيء ، ويمسى مرهوباً مخوفاً . « ومن شر النفاثات فى العقد » وجو النفث فى العقد من الساحرات والكواهن كله رهبة وخفاء وظلام ، بل هن لا ينفثن غالباً إلا فى الظلام . « ومن شر حاسد إذا حسد » والحسد انفعال باطنى مطمور فى ظلام النفس ، غامض مرهوب كذلك .

الجو كله ظلام ورهبة ، وخفاء وغموض وهو يستعيذ من هذا الظلام بالله ، والله رب كل شيء . فلم خصصه هنا « برب الفلق » ؟ . . . لينسجم مع جو الصورة كلها ، ويشترك فيه . ولقد كان المتبادر إلى الذهن أن يعوذ من الظلام برب النور ، ولكن الذهن هنا ليس المحكم ، إنما المحكم هنا هو حاسة التصوير الدقيقة ، فالنور يكشف الغموض المرهوب ، ولا يتسق مع جو الغسق والنفث فى العقد ، ولا مع جو الحسد ... و « الفلق » يؤدى معنى النور من الوجهة الذهنية ثم يتسق مع الجو العام من الوجهة التصويرية ، وهو مرحلة قبل سطوع النور تجمع بين النور والظلمة ، ولها جوها الغامض المسحور .

ثم ما هى أجزاء الصورة هنا أو محتويات المشهد ؟

هى من ناحية : « الفلق ، والغاسق » مشهدان من مشاهد الطبيعة ومن ناحية « النفاثات فى العقد ، وحاسد إذا حسد » مخلوقان آدميان .

وهى من ناحية : « الفلق » و « الغاسق » مشهدان متقابلان فى الزمان . ومن ناحية : « النفاثات » و « الحاسد » جنسان متقابلان فى الإنسان .

(١) يزاحم عدد الهجرة من الرسالة هذا العام .

وهذه الأجزاء موزعة على الرقعة توزيعاً متناسقاً . متقابلة فى اللوحة ذلك التقابل الدقيق . وكلها ذات لون واحد ، فهى أشياء غامضة مرهوبة ، يلفها الغموض والظلام . والجو العام قائم على أساس هذه الوحدة فى الأجزاء والألوان .

ليس فى هذا البيان شيء من التمحل ، وليست هذه الدقة كلها بلا هدف . وليس هذا الهدف حلية عابرة . فالمسألة ليست مسألة ألفاظ أو تقابلات ذهنية . إنما هى مسألة لوحة وجو وتنسيق وتقابلات تصويرية تعد فناً رفيعاً فى التصوير ، يلفت النظر إذا أداه مجرد التعبير .

٢ — عبر القرآن عن الأرض قبل نزول المطر ، وقبل تفتحها بالنبات ، مرة بأنها « هامدة » ومرة بأنها « خاشعة » وقد يفهم البعض أن هذا مجرد تنويع فى التعبير . فلننظر كيف وردت هاتان الصورتان :

لقد وردتا فى سياقين مختلفين على هذا النحو :

(ا) وردت « هامدة » فى هذا السياق « يأيها الناس : إن كنتم فى ريب من البعث ، فانا خلقناكم من تراب، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ؛ لنبين لكم ، ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ، لكى لا يعلم من بعد علم شيئاً ، وترى الأرض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج » .

(ب) ووردت « خاشعة » فى هذا السياق : « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لاتسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذى خلقهن ، إن كنتم إياه تعبدون ،فان استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لايسأمون . ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت »

وعند التأمل السريع فى هذين السياقين ،يتبين وجه التناسق فى « هامدة » و « خاشعة » . إن الجو فى السياق الأول جو بعث وإحياء وإخراج ؛ فما يتسق معه تصوير الأرض بأنها « هامدة » ثم تهتز وتربو ، وتنبت من كل زوج بهيج .

وإن الجو فى السياق الثانى هو جو عبادة وخشوع وسجود ، فما يتسق معه تصوير الأرض بأنها « خاشعة » فاذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت .

ثم لايزيد على الاهتزاز والإرباء هنا ، الإنبات والإخراج كما زاد هناك ، لأنه لامحل لهما فى جو العبادة والسجود . ولم تجىء « اهتزت وربت » هنا للغرض الذى جاءتا من أجله هناك . إنهما هنا تخيلان حركة للأرض بعد خشوعها ، وهذه الحركة هى المقصودة هنا ، لأن كل مافى المشهد يتحرك حركة العبادة ، فلم يكن من المناسب أن تبقى الأرض وحدها خاشعة ساكنة . فاهتزت لتشارك العابدين المتحركين فى المشهد حركتهم ، ولكى لايبقى جزء من أجزاء المشهد ساكنا وكل الأجزاء تتحرك من حوله . وهذا لون من الدقة فى تناسق الحركة المتخيلة ، يسمو على كل تقدير .

ويحسن أن نلاحظ أن الهمود والخشوع يتحدان فى المعنى العام ، ويستدل بهما فى الآيتين على قدرة الخالق على البعث ، فما هما إلا سكون أو خمود ، تعقبه الحركة والحياة ، فلو كان المقصود هو مجرد أداء المعنى الذهنى، لما كانت هناك ضرورة لهذا التنويع. ولكن التعبير القرآنى لايرمى إلى مجرد أداء المعنى الذهنى ، إنما يريد الصورة كذلك ، والصورة تقتضى هذا التنويع ، ليتم التناسق مع الأجزاء الأخرى فى اللوحة ، أو فى المشهد المعروض

ودلالة هذا التنويع حاسمة فى أن « التصوير » مقصود قصدا فى أسلوب القرآن ؛ وأن التعبير لايقصد إلى أداء المعنى الذهنى مجردا ، إنما يعمد إلى رسم صور للمعانى ، تختلف هذه الاختلافات الدقيقة اللطيفة حسب اختلاف الأجزاء والألوان

ثم لننظر الآن إلى « وحدة الرسم » فى كل من الصورتين ، وفى أجزاء الصورة كذلك .

وحدة الصورة الأولى هى : مخلوقات حية تخرج من الموت أو مشاهد حياة ، والأجزاء هى : نطفة تدرج فى مراحلها المعروفة ونبتة تصير زوجا بهيجاً . وهى تراب ميت تخرج منه هذه النطفة ، وأرض هامدة تخرج منها هذه النبتة . والجو العام هو جو الإحياء المرتسم من هذه الأجزاء

ووحدة الصورة الثانية هى : مخلوقات طبيعية عابدة ، أو مشاهد طبيعة . والأجزاء هى : الليل والنهار، والشمس والقمر، والأرض

خاشعة لله . تموج فيها وتتصل بها جماعتان من الأحياء مختلفتا النوع متحدتا المظهر : جماعة من الناس تستكبر على العبادة ، وجماعة من الملائكة تعبد بالليل والنهار . والجو العام هو جو العبادة المرتسم من هذه الأجزاء .

وهكذا تتناسق الجزئيات مع الجو العام ، وتتحد جزئيات الصورة الواحدة تحقيقاً لوحدة الرسم وتوزع الأجزاء فى الرقعة بهذا النظام العجيب .

٣ — عرض القرآن فى مواضع مختلفة كثيراً من صور النعمة التى أفاءها الله على الإنسان ، وفى كل موضع كان يعرض مجموعة من النعم ، متسقة « الوحدة » على هذا النحو الذى نعرضه فى موضعين للتمثيل :

(ا) « والله جعل لكم من بيوتكم سكناً ، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ، ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعا إلى حين » .

« والله جعل لكم مما خلق ظلالا ، وجعل لكم من الجبال أكناناً ، وجعل لكم سرابيل تقيكم الحرّ وسرابيل تقيكم بأسكم . كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون »

(ب) « وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونها — من بين فرث ودم — لبناً خالصاً سائغاً للشاربين .

« ومن ثمرات النخيل والأعناب ، تتخذون منه سكراً ورزقاً حسنا . إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون .

« وأوحى ربك إلى النحل : أن اتخذى من الجبال بيوتاً ، ومن الشجر ، ومما يعرشون ، ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس . إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون »

يلاحظ فى هذين السياقين أن الأنعام مذكورة فيهما على السواء ، فلننظر من أى الجوانب عرضت فى كل سياق ، ولماذا عرض هذا الجانب هنا ، وذلك الجانب هناك .

(ا) السياق الأول يرسم صورة أو مشهداً للبيوت ، والأكنان والظلال ، والسرابيل ، وكلها مما يلاذ به ، أو يستتر ، أو يستظل أو يحتمى . ولأن هذا هو « وحدة الرسم » عرض من « الأنعام » الجانب الذى يتفق مع هذه الوحدة . عرض الجلود التى تتخذ بيوتاً تستخف يوم الظعن ، والأصواف والأوبار والأشعار التى تتخذ أردية وأثاثاً .

(ب) والسياق الثانى يرسم صورة أو مشهداً لاستخراج . الأشربة : السكر الذى يستخرج من الثمار ، والعسل الذى يخرج من النحل . ولأن هذه هى « وحدة الصورة » عرض من الأنعام الجانب الذى يناسب الأشربة . عرض اللبن السائغ للشاربين .

ولم تقف دقة التنسيق عند وحدة النظر العامة ، بل تمشت إلى دقائق الجزئيات : فهذا السكر يستخلص من الثمرات المخالفة فى هيئتها وطبيعتها للعسل ، وهذا اللبن يستخرج من بين فرث[1] ودم المخالفين فى هيئتهما وطبيعتهما للبن ؛ فهى كلها تستحيل من أشياء أخرى . ثم المنظر كله منظر زراعى حيوانى .

ألا إنه الإبداع هنا فى دقة التصوير ، وفى تناسق الإخراج . ومثل هذه اللمسات الدقيقة التى تستوعب دقائق الجزئيات كثير فى القرآن ، نكتفى منه بهذه الأمثلة ، ونضيف إليها المثال التالى لما له من دلالة خاصة !

٤ — « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم . فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيما » .

فالصورة صورة مبايعة بالأيدى ، ولتنسيق الجو كله ، جعل « يد الله فوق أيديهم » واستخدم هذا التجسيم فى موضع التجريد المطلق ، والتنزيه الخالص .

وعلماء البلاغة يسمون مثل هذا : « مراعاة النظير » ويعنون منه الجانب اللفظى ، لأنهم لم يحاولوا أن يلحظوا جانب التصوير ، ونحن نأخذ تعبيرهم نفسه « مراعاة النظير » ونعنى به جانب التناسق الفنى فى الصورة ، للمحافظة على « وحدة الرسم » وعلى جو المشهد وعلى الانسجام العام .

* * *

ولكن القرآن لا يستخدم فى التصوير هذه « اللمسات الدقيقة » وحدها ؛ إنما يستخدم كذلك « اللمسات العريضة » (ونحن نعبر بلغة التصوير لأننا فى الواقع أمام تصوير قبل التعبير) هذه اللمسات العريضة قد تجمع بين السماء والأرض فى نظام ، وبين مشاهد الطبيعة ومشاهد الحياة فى سياق . حيث تتسع رقعة

(١) الغذاء الهضوم فى الأمعاء .

الصورة لهذا كله على أساس من « الوحدة الكبيرة » بدل « الوحدة الصغيرة »

١ — من ذلك : « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت ؟ »

فهذه ريشة تجمع بين السماء والأرض والجبال والجمال ، في مشهد واحد ، حدوده تلك الآفاق الوسيعة من الحياة والطبيعة ، والملحوظ هنا هو « الضخامة » وما تلقيه في الحس من استهوال ، والأجزاء موزعة بين الاتجاه الأفقي في السماء المرفوعة والأرض المبسوطة ، والاتجاه الرأسي بينهما في الجبال المنصوبة ، والإبل الصاعدة السنام . وهذه دقة تأخذها عين المصور الدقيقة في الأشكال والأحجام .

ومما يلاحظ هنا بين المصور كذلك أن لوحة طبيعية تشمل السماء والأرض والجبال ، لا يبرز فيها من الأحياء إلا الجمال ، أو ماهو في حجم الجمال ! والجمل هو الحيوان المناسب ، لأنه أليف الصحراء الفسيحة التي تحدها السماء والجبال !

٢ — ومن هذا النحو — مع تغيير في مواضع اللمسات : «ولقد جعلنا في السماء بروجاً ، وزيناها للناظرين ، وحفظناها من كل شيطان رجيم ، إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين . والأرض مددناها . وألقينا فيها رواسي ، وأنبتنا فيها من كل شيء موزون ، وجعلنا لكم فيها معايش ، ومن لستم له برازقين » .

فني السماء بروج ضخمة ، وشهب تنقض على المردة . وفي الأرض الممدودة رواسٍ راسخة ، ونبت «موزون» (لا « بهيج » لطيف !) وفي الأرض كذلك « معايش » بهذا الجمع والتكثير ، وفيها من لا يرزقه الناس بهذا التهويل والتنكير ... وهذه مشاهد وخدتها الضخامة الحسية والمعنوية .

٣ — وقد تتسع الرقعة ويتطاول المدى وتعرض اللمسات ، ولكنها تدق في النهاية حتى تتناول الجزئيات :

مثال ذلك : « إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما في الأرحام ، وما تدري نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدري نفس بأي أرض تموت . إن الله عليم خبير » .

فهذه رقعة فسيحة في الزمان والمكان ، وفي الحاضر الواقع ، والمستقبل المنظور ، والغيب السحيق ، وفي خواطر النفس ووثبات الخيال ، ما بين الساعة البعيدة المدى ، والغيث البعيد المصدر ، وما في الأرحام الخافي بلفظه وحقيقته عن العيان ، والرزق في الغد وهو قريب في الزمان مغيب في المجهول ، وموضع الدفن وهو مبعد في الظنون .

إنها رقعة فسيحة الآماد والأرجاء ، ولكن اللمسات العريضة بعد أن تتناولها من أقطارها ، تدق في أطرافها ، وتجمع هذه الأطراف كلها عند نقطة الغيب المجهول ، وتقف بها جميعاً أمام كوة صغيرة مغلقة ، لو انفتح منها سَمُّ الخياط لاستوى القريب خلفها بالبعيد ولانكشف القاصي منها والدان .

* * *

ذلك أفق واحد من آفاق التناسق الفني في تصوير القرآن ووراءه آفاق أخرى وآفاق !

سيد قطب

إقرأ هـــذا الكتاب الذي تحتوي فصوله على تطور القاهرة منـــذ نشأتها في أيام الفواطم والأيوبيين والمماليك . .

القاهرة

للباشا

عبد الرحمن زكي

مدير المتحف الحربي

والأسرة المالكة الكريمة

والقاهرة الحديثة

كتاب يجب أن لا تخلو منه مكتبة أديب

يطلب من دار الكتب الأهلية بالأوبرا

وثمنـــه ٣٠ قرشاً

المراسلات باسم مؤسسها بشرى خليل